بقلم الاب توتل اليسوعي

قصدنا اليها ساعتين قبل نصف الليل ، والهلال اسدل عليها غشاء نور شفّ عن البنايات ، فموّه بخطوطه المدينة تمويهاً ، ولم يزدْ منها اكثر مما يراه الانسان من المرأة المبرقعة ، الملتحفة بازارها الفضفاض . كان السبات قد عمّ الاحياء ، فهدوء وسكينة ، الا في جوار دار البريد ، حيث بعض التجار يستعجلون توزيع المكاتيب التي حملتها السيارة ، وايانا ، من حلب . وهناك مقهى يقضي فيه الناس اواخر ساعات السهر قبل انقضاء الهجعة الثانية من الليل . ثم حرس من انفار الجند ، ووقع خطوات طارق يعود الى منزله . الهواء هواء اذار ، بين شتاء وربيع ، بليل ، رطب ، مخضل بماء الفرات ونقاته . الفرات ! يا ما اهيب سيره تحت النجوم ! وهو يبصّ بصيصاً اذ تعكس مياهه اشعة انوار السماء .

بتنا ليلتنا في بيت من بيوت كرام المسيحيين ، وما صاح الديك الا هبت عروس الصحراء من رقادها ، فأسفرت عن وجه وضّاح وهالة ذهبية : هي مدينة دير الزور ، وبساتينها ، ومنتزهاتها ، وتكنات عسكرها وحكامها ، واروقة ازقتها واسواقها . ظهرت مطوقة بالرمال ، مقلدةً جيدها باشعة الشمس المنعكسة عليها ، لابسةً جلباباً ولا جلباب العرائس . تحركت فاهتزت الخلاخيل ومشت : وهو رغاء وهو ثغاء ؛ غنم الموصل يتوقع على ضفاف الجزيرة تجهيز الزوارق لعبر المياه الى ارض الشامية ؛ وفرقة جيش الهجانة تتأهب للرحيل الى منطقة الحسجة لاحتلال الاراضي التي تخلى عنها الأتراك لبلاد الانتداب . ومئات

العمال يتزاحمون على الطريق المؤدية الى ورشة الجسر الاكبر. فُتحت الحوانيت واقبل الناس على اشغالهم وخرج ضباط الجيش الافرنسي وعسكره الى اعمالهم. ومضينا الى الكنيسة نصلي قبل اخذنا بزيارة الرعية المسيحية وتفقد شؤونها ودعوتها الى الرياضة الروحية.

دير الزور مدينة عريقة في القدم، وآثارها طوامس تحت بناياتها، ولا بد ان يساعد الزمان على كشفها. اما اليوم، فالمراجع الى معرفة احوالها هي الاخبار التي يتداولها السكان، مع ما يذكر عنها في سجلات الحكومة الحالية والسابقة، ومع اقوال الرواد فيها، ومرامي التاريخ اليها في سياق الحديث على الحوادث الخطيرة التي جرت على شواطئ الفرات الاوسط. فمنها نستقي تطبيقاتنا في الكلام على اسمها وموقعها، وعلى احوالها في حكم مشايخها العرب، ثم في حملة عمر باشا عليها، وتوطيد اركان السلطة العثمانية فيها، الى ان دخلت حياتها الجديدة في ظل الانتداب الافرنسي.

اسم البلدة وضوقعها

عدّوا لها لا اقل من عشرة اسماء! فايّ اسم احق بان تعرّف به؟ في سنة «المشرق» العاشرة (١٠ [١٩٠٧] : ٤٨٨–٤٩٢) نشر حضرة الاب انستاس الكرملي مقالاً على اسماء الدير ومعانيها حديثاً وقديماً، فقال ما خلاصته: انهم سموها دير الزور نسبةً لاشجارها، واشتق لفظة الزور من زأر وقال: زأرة الاسد اجمته؛ والزأرة الاجمة ذات الماء والحلفاء والقصب. وقال ايضاً انهم سموها «دير الشمار» بتخفيف المين، والشمار في العربية الشجر الملتف، ولمثل هذه العلة سموها ايضاً دير العصافير وهذه لا تكثر الا في مواطن الاشجار. وقد وافقه على هذا الرأي بعض المستشرقين الذين ترجموا الى لغتهم دير الزور بمعنى دير شجر الطرفا او الاثل (*Tamaris*). وقد يوافق موضع دير الزور الحالي اسم دير الرمان، الذي ورد في معجم البلدان لياقوت، القائل: دير الرمان مدينة كبيرة ذات اسواق للبادية بين الرقة والخابور تنزلها القوافل القاصدة من العراق الى الشام.

وسمع كاتب هذا المقال احد مشايخ الدير الحاليين يقول: رُوي عن الفاتح تيمورلنك انه قدم الدير ووجد فيها عذارى عابدات فلم يمسهن باذى ؛ وينسب اسم البلدة الى انها كانت في الحقيقة ديرًا . وقال ايضاً قد يكون اضيف اسم الزور الى الدير نسبة الى زيارته من الناس ، او لازورار الفرات في ذلك الموضع ، وهو ينشقّ الى شطرين فيحتق « الحويقة » بذراعيه ثم يعود فيجمع مياهه عند خروجه من الدير . وقد سبق الاخطل ووصف الفرات بالازورار في جريه من جبال الروم المطلّة عليه حتى يشقّ بلاد العراق ، فقال :

مستحفرٌ من جبال الروم يستره منها اكافيف فيها دونه زورُ (١

ويقال ان اول ما ورد اسم الدير في المؤلفات العربية كان عن لسان ابي الفداء سنة ١٣٣١ م ، فسماها دير بصير . وقال: كان فيها سدّ فهُدم بفيضان الفرات . ويرى المستشرق موسيل ان دير بصير المذكور انما كان موقعه في البصيرة الحالية . والله اعلم ! على ان تنوع اسماء الدير ، بثبات المضاف وتغيير المضاف اليه ، قد يكون دليلًا على ان اسم البلدة الاصيل هو دير او ما شابهه لفظًا ، فاخذه العرب ونطقوا به باللفظ الاقرب مبنى ومعنى من لغته الاصلية فقالوا الدير . ولما كانت هذه الكلمة دالة على اعلام كثيرة ، ميزوا بينها وبين غيرها بما الحقوها به من مضاف اليه . ولعل البحث على اسم البلدة القديم يمكننا من معرفة الاصل الذي صاغ منه العرب كلمة « الدير » :

قال بطليموس في كتاب الجغرافية (٢ : ان حدود بلاد العرب المقفرة هي في الشمال نهر الفرات . ودوّن لائحة المدن الواقعة على ذلك النهر ، فذكر « تفساخ وبيرثه وجادرثه . . . وادّاره » . فاي الاسماء كان في سابق الزمان اسماً لديرنا الحالية ؟

تناقش الموضوع الابوان الفاضلان انستاس الكرملي ولامنس اليسوعي (المشرق ١٠ [١٩٠٧] : ٤٨٨-٤٩٢) فارتأى الاول رأي من قال انها ليست

١) المستحفر : السريع الجري ؛ الاكافيف : المناكب ؛ الزور : الميل (طبعة صالحاني ١٩٠٤)

٢) طبعة مولر ، ١ ص ١٠١٤

الا « تفساح » القديمة التي جاء ذكرها في التوراة (٣ ملوك ٤ : ٢٤) . وفي وصف كسينوفون لرحلة العشرة الآلاف وبطليموس وغيرهم . وذهب ابعد من ذلك فقال : ان بني ارم ابدلوا هذا الاسم باسم آخر يناسبه معنى ويخالفه مبنى ، فانهم نقلوا الى لغتهم كلمة « تفساح » بلفظة « صندوخياء » التي معناها الارض العطشى الخ ... » وردّ عليه حضرة الاب لامنس مبيناً ان تفساح ليست في موضع دير الزور وقد كانت ، على ما رواه الاقدمون ، غير بعيدة عن حلب ومنبج والبيره او بيرجيك . واحتج لرأيه باحدث ما كتبه الاثريون والجغرافيون . وجاءت منذ تلك الايام مؤلفات موسيل وهرتزفلد وغيرهما ، وكلها تنفي كون تفساح القديمة هي دير الزور الحديثة .

ومال الالماني ريتر الى تعيين برثه التي ذكرها بطليموس موضع دير الزور ، وقال غيره انها قد تكون « ادّاته » او « اداره » المذكورة سابقاً . . وقد يرجح مولر وفليشر وهرتزفلد انها كانت Barbalissos وهي التي جاءت مشوّهة باسم دورته في لوح بوتنجر وعند صاحب الجغرافية الراقني . واصل اللفظة بالآرامية والعربية واضح فهو بُرْبُوْ اي غنم وبالعربية « جديرة » او حظيرة . وهو موافق تمام الموافقة لموضع دير الزور ، وهي المحطة الكبرى للغنم في اجتيازه من الجزيرة الى سورية .

وقد يؤيد هذا الرأي ما قاله بطليموس عن موقع « جديرته » المناسب لموقع دير الزور باربعين درجة وعشر دقائق طولاً ، و ٣٥ درجة وعشرين دقيقة عرضاً شمالي الكرة الارضية .

الدير على عهد القبائل

ان آثار المدن الباقية الى يومنا في بلاد الفرات الاوسط دليل على عمرانها في العهد الروماني والعربي . ولا بد ان بلدة الدير ، الواقعة على بعد يوم من قرقيسية ومصبّ الخابور ، ويومين من الرقة قاعدة هارون الرشيد ، كانت مزدهرة في القرون الوسطى . ولكن ليس بين يدينا دليل واضح على حالتها سوى ما نعرفه عن حسن مركزها للمواصلات بين بلاد الجزيرة وبلاد الشام . وطرأ

عليها ما طرأ على امثالها من حوادث الخراب من جراء الحروب وحملات التتر على البلاد السورية في القرن الخامس عشر . الى ان اقفرت البادية على شواطئ الفرات ، وانقطع حبل الامن ، وتحول مجرى التجارة الى الهند عن طريق بحر قزوين شمالاً او عن طريق الاسكندرية[1] جنوباً . وشلت اليد العاملة في مشاريع الري والزراعة فهجرت الرمال المدن الخالية من سكانها ، وطغى الفرات ، وسد باوحاله الاقنية التي اصطنعتها ايدي البشر منذ عهد اشور وبابل وتغيرت سحنة البلاد : كانت سابقاً اشبه بجنة عدن فامست مسرحاً للنعام وميداناً لحروب القبائل وغزواتها . ولم يعن العرب بعمرانها ، وهم يفضلون سكنى الخيم على البيوت . وقلما يخافون سقوط الامطار لمدة مديدة ، ويكتفون بظل الخيمة وقاية من الشمس . فاذا سئموا المقام في ارض اقلعوا منها ورحلوا الى غيرها طبقاً لاحتياجات المواسم[2] . وابن البادية شامخ ، صلف ينظر بعين الاحتقار الى سكان البيوت ويستضيق العيش ضمن جدرانها[3] . فلا عجب ان تقهقرت مدينة الدير في ايام العرب . على ان مركزها على مخاضة الفرات جعلها محطة لشيوخهم . كانوا يقيمون فيها ويراقبون منها حركة الاسفار ويضربون فرائض الخوة والمكوس على المسافرين . وهم على ذلك ملتزمون بدفع الضرائب للسلطان . بلغت الينا اخبار ذلك العهد عن الرواد الذين قطعوا بلاد الزور وتركوا لنا وصف رحلاتهم ، ومن اقوالهم يتاح لنا ان نعرف البلدة كما شاهدوها في القرون الاخيرة .

في السنة ١٥٧٤ حط فيها روفلف (L. Rauwolff)[4] الطبيب والعالم النباتي الالماني ، وهو مسافر على الماء من بيرجك الى فالوجه . فوجدها بلدة « صغيرة » يحكمها الاتراك . تقدم اليه منها رجال نزلوا في سفينته واتوا بها الى الشاطئ فوق طريق العبر . وكانت بيوتها متلاصقة في تل على الضفة اليمنى

---

١) راجع مقال كاروثرس (D. Carruthers) في الجريدة الجغرافية الانكليزية ١٩١٨ ، ص ١٥٨ ، على طريق القافلات من حلب الى البصرة .

٢) راجع ساخو (Sachau) في كتابه على سورية وما بين النهرين ، ص ٢٦٥

٣) راجع اوپنهايم : من البحر المتوسط الى خليج فارس ، ٢ ص ٥٠

٤) راجع ريتر ، الجغرافية ، ١٠ ص ٦٩٣

تحيط بها جدران وخنادق . اقام فيها روتلف ثلاثة ايام قبل ان يؤدي فرائض المكوس . وصف سكانها فقال انهم اقوياء البنية والاعضاء ، شعرهم اسود قاتم ، واخلاقهم مهذبة تستأنس بالغريب . كانت محصولاتهم الحنطة والشعير ، والقطن والذرة . وكانت بساتينهم حافلة بانواع الفواكه من قرع وبطيخ وغيرها وهذه تباع باسعار مخسة جدًا . وهناك ايضاً شجر النخل والليمون والبرتقال . وكان موظف المكس رجلًا ارمنياً . وكانت مخاضة الفرات من جانبي الحويقة قليلة العمق ، فتلجئ اصحاب الزوارق الى تخفيف حملها لئلا تتوحل في الرمال . وهناك نوع من الشجر اشبه بالصفصاف ويسميه السكان « غرباً »[1] ، وقد ينتشر في الساحل وينمو بكثرة ، وقلما يرتفع عالياً .

وفي ١٦ نيسان من السنة ١٦٩٦ ، وصل الى الدير الاب يعقوب ڤيلوت (Villotte) ورفيقه ، اليسوعيان وكان قد ابحر من القسطنطينية في ٣١ كانون الثاني ، ومر بنافليولي في ٣ شباط ، وبجزيرة رودس في ١٠ منه ، وبقبرس في ٢٦ منه . ووصل الى طرابلس الشام في ٦ آذار ، وفي ٢١ منه الى حلب ، وكانت باوج عزها . وغادرها الاب ورفقته قاصدين الى اصفهان عن طريق البادية . فتكبدوا مشاق الجوع والعطش ووقعوا في ايدي اللصوص ، واضطروا الى حط رحالهم في دير الزور . قال الاب ڤيلوت (ص ٣٦٤) : بعد السير الحثيث هرباً من البدو ، بلغنا الدير ، وهي قرية حقيرة واقعة على شاطئ الفرات يحكمها باسم السلطان احد بكوات العرب ، ويبسط سلطته على حيت والدير وعانة وسائر شواطئ الفرات الى بغداد ، ويتقاضى دينارًا ذهباً على كل من المسيحيين المجتازين دير الزور . وكان مرافقاً للاب ڤيلوت دليل له معارف بالدير ، فلم يدفع عن الاب ورفيقه للبك الا دركاً واحدًا ومهد لهما سبيلًا للراحة من اعناء السفر . وفي الثامن عشر من نيسان خرجوا من الدير نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ولم

---

١) ما زال هذا الشجر كثيرًا في الدير الى يومنا . عرضنا اوراقه على استاذ النباتيات في معهدنا الطبي الافرنسي فسماه *Populus canescens* من نوع *Salicinée* ، وقد يصلح ثمره حشوًا للفرش والمخدات .

٢) راجع اسفار احد المرسلين ص ٣٦٤... *Voyages d'un Missionnaire, Paris, 1730*

يقطعوا مسافة بعيدة الا خرج العرب عليهم وسلبوهم.

وفي السنة ١٨٠٩ ، وصف روسو دير الزور في كتابه على « باشارية بغداد » فقال انها قرية خاملة الذكر فيها بعض بيوتات العرب . وكانوا بالظاهر خاضعين لباشا بغداد ، وبالحقيقة مستقلين . وكانت البلدة آنذاك تحت التأثير الذي نالها من حملة سعود بن عبد العزيز الوهابي عليها سنة ١٨٠٧ [١] .

وفي ١٥ ايار ١٨٣٦[٢] وصل الى دير الزور منحدرًا على النهر من بيرجك الكولونيل تشسنه الانكليزي، وهو اول من خاض مياه الفرات بمركب بخاري، على امل ان يفتح المرّ بحرًا من الهند الى البحر المتوسط على طريق بيرجك فانطاكية فالعاصي . ووافق مروره بالدير زحف الجراد عليها . ووجد في انحائها نوعاً من الحمر استعمله وقودًا في سفينته البخارية ، ونعت ذلك الساحل بالارض السوداء ، نسبة لسواد الاسفلت فيها. ولم يلاقِ من العرب القاطنين شاطئ الفرات في بلاد الزور الّا كلّ ولاء وصداقة. ووصف المدينة فقال[٣] : ان الدير القديمة تحوي زهاء الف بيت مبنية على تلّ عالٍ ، بشكل المخروط ، مرتفعة على جانب الفرات الايمن ، تجاه طرف الحويقة الشرقي ، الواقعة بين النهر وبين الترعة ، وهذه الترعة فُتحت لتخفيف شدة مياه الفرات في سرعتها نحو الشرق وهي محكمة الحفر ، صالحة للملاحة. فاجتازها من غير ما عقبة .

وارسل الكولونيل تشسنه من الدير رسالة الى حلب ، مبشرًا بوصوله الى تلك المحطة بالسلامة . وسبر ابان رحلته على الفرات اغوار المياه وقاس اعماقها ودوّنها في الخارطة التي رسمها للنهر واشفع بها مؤلفه الكبير على الرافدين . وقد نشرنا ما اخذناه من تلك الخارطة في بلاد الزور، وعرضناه عسى ان يستفيد منه من ليس بوسعه مراجعة الخارطة الاصلية.

---

١) موسيل: الفرات الاوسط ، ص ٢

٢) ويتر : جغرافية ، ١١ : ٦٩٢

٣) راجع تشسنه : رحلة دجلة والفرات Col. Chesney, *Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris. London, 1850.*

عمر باشا الكرواتي

في ذلك العهد، كانت «الدولة العلية» صاحبة السيادة على البلاد، لكنها لم تخضع الاهلين الا حيث كان جيشها مظفرًا قويًا . وقد طالما تكبدت المشاق في كبح جماح العرب ، وهم يقطعون طرق البادية بين الشام والعراق ويمنعون الحجاج عن زيارة الحرمين ، ويغزون الموظفين ابان رحلاتهم من الاستانة الى بغداد لاستلام مقاليد الحكم فيها. وكانت دير الزور من المحطات التي استقل فيها العرب او كادوا لرفع لواء العصيان على تركية . فعقد الباب العالي العزائم على استئصال شأفة الفتن.

في اواخر السنة ١٨٥٨ ، لو اشرف سكان الدير من اعالي الاكمة المبنية عليها مدينتهم لرأوا عن بعد ، نحو الغرب ، جمهورًا كبيرًا اشبه بالجيش المعظم ، وقد طارت على رؤوسه اشعة الآلات الموسيقية النحاسية وتصاعدت من صفوفه الالحان الحربية المهيجة . من كان الآتي من الصحراء وما كان مقصوده ؟

هو عمر باشا ، وقصده فتح الدير.

ولد هذا القائد سنة ١٨٠٦ في كرواتيا من اعمال النمسة[1] وتمذهب في الكنيسة اليونانية الغير الكاثوليكية ، وساقته الايام من قريته الى الخدمة العسكرية، الى التوظف في الجيش التركي، الى جحود ايمانه واعتناقه الاسلام ، لا عن يقين ولكن طمعاً بالتقدم في المراتب. وساعده الحظ فترقى الى السلطان عبد المجيد وحظي برضاه ، فعُهد اليه بقيادة الجيش ورُفع الى رتبة سردار ، واشترك في حرب القرم ونال رتبة باشا بغداد ، فسافر اليها عن طريق حلب والبادية . وكان شجاعاً ، طموحاً الى العظائم ، مغوارًا ، توّاقاً للبذخ والفخفخة . وقد اخذ على عاتقه مهمة تأديب العرب .

في ٢ كانون الاول سنة ١٨٥٨ خرج من الشهباء وامامه ٥٠٠ فارس من سوريين واكراد، وبمعيته قافلة عدتها ٦٠٠ جمل، وحملت الحريم والعسكر والضباط

---

(١) راجع مجلة المراسل *Le Correspondant* ١٨٩٥ : ١٨٠ ، ص ٢

والموظفين . وكان ما بين هؤلاء علي باشا الشركسي ، وابراهيم باشا البولوني اليهودي الاصل ، واسكندر باشا المعروف بالكونت ايلنسكي ، وشبلي باشا زعيم الدروز سابقاً ، وكان عمر قد اسره ابان حملته على جبل لبنان ، واليهودي سيتر جولدشتين . وكان على رأس القوم صفّ من الجنود يعزفون بآلات الموسيقى النحاسية . وكان غرض عمر باشا من هذه المظاهرة ان يلقي الهيبة في قلب سكان الدير فيطيعوه في كل ما يفرضه عليهم من الضرائب.

ولكن ما رأى سكان البلد الخيلة وما سمعوا اصوات الابواق الا ذعروا ودخلوا بيوتهم وتحصنوا فيها ، وامتنعوا عن قبول الباشا التركي . وكان عسكر الباشا بحاجة الى الطعام والشراب والذخيرة ، فما ان عرفوا المجال واسعاً حتى هاجم بعضهم البلدة ودخلوها عنوة واعملوا فيها السيف ، بينما كان غيرهم من الفرسان يطوفون الانحاء ويحولون دون قدوم البدو لنجدة سكان البلدة . وكان غيرهم من الجنود واقفين في حراسة الحريم والامتعة.

وقدم الباشا بذاته امام الدير ، واذا باحد ابوابها قد فُتح وخرج منه شيخ يجرّ وراءه سلسلة من الناس التاعسين وهم عزل يطلبون الامن.

فآمنهم عمر باشا ، وردّ العسكر عن البيوت وضرب على السكان الاتاوة ، واسر منهم سبعين فاقتادهم معه الى بغداد عن طريق الصحراء ، ليجعلهم بين العرب عبرة لمن اعتبر . وقيل ان اربع مئة من السكان ماتوا في تلك الوقعة . وهدأت البلاد بعد سفر عمر باشا . وخيم الامن عليها . انما تلك كانت طرق التأديب على ايام الاتراك.

اما سائر حوادث واخبار البلدة فسوف نقف عليه في المقال الآتي.